بارسيفال

الزمن: القرون الوسطى.

المكان: إسبانيا وفي داخل قصر الكأس المقدسة، قصر كلينجـسور المـسحور، حديقة القصر.

"بارسيفال" اسم مألوف لمن سمع ب "لونجرين". لونجرين يخبر إلـزا أنـه ابـن بارسيفال وواحد من فرسان الكأس المقدسة. بارسيفال يعالج فترة في التاريخ سابقة لتاريخ فرسان الكأس المقدسة في لونجرين. لكن الشبه بين موسيقى الكأس المقدسة في "بارسيفال" وبينها في موسيقى "لونجرين" كبير، ليس فقط في الميلودي ولكـن أيضا في النقاء والروحانية التي تلهمها كلتاهما.

الفصل الأول:

واحد من الفرسان الصليبيين، جورنمانز، الأشيب الشعر واللحيـة، يراقـب ذات فجر، ضاحية الغابة وهو جالس تحت شجرة عظيمة. اثنان من الحراس الـشباب نائمان عند قدميه. يسمع من بعيد عن القصر قرع أجراس اليقظة. "هي هو" ينادي جورنمانز الحارسين بمزاج خشن، فيقفز الشابان واقفين، وحين يسمعان أجـراس اليقظة يركعان للصلاة. إحساس بالسلام يهيمن على جو العبادة. ولكن هذا السكون يخرق حين فارسان يجران عربة تحمل الملك من سريره إلى الغابة قرب البحيرة حيث يغسل جرحه الذي ينكأ عليه ويسبب له الألم الشديد. يتوقّفون للتحـدث مـع جورنمانز ولكنهم يقاطعون بصياح من الشباب وأصوات تندفع في الهواء.

"انظروا إلى الفارسة الجامحة" "كيف عفرة مهرها الشيطاني يطير في الهواء" "نعم إنها كوندري" "هاهي تترنّح تعبا" يصيح الحارسان وهما يراقبان قـدوم المخلوقـة الغريبة التي تندفع إلى الداخل، إمرأة بثياب خشنة، وحزام من جلد الحية؛ وشعرها الأسود الفاحم يتهدل فوق كتفيها، عيناها تلتمعان ثم تثبتان.

ترمي فجأة بحقّ زجاجي في يد جورنمانز. "إنه البلسم للملك!" لهجتهـا متوحـشة وتصرفاتها كذلك. يسألها جورنمانز من أين أتت به، فتجيب: "من بعيد لا يمكـن

لفكرك أن يتصوره. فإن فشل الدواء، فليس في البلاد العربية شيء آخـر يخفـف آلامه ويشفي جراحه. لا تسألني أكثر. إنني تعبة وأريد أن أنام."

ترمي بنفسها على الأرض وتضع وجهها بين يديها، وهي تراقب الملك المحمـول على محفّة، وتجيب على شكره بضحكة هازئة متوحشة، وتتبعه بعينيها محمـولا إلى البحيرة بينما كان جورنمانز والحراس الأربعة قد بقوا في الخلف.

قطعة موسيقية

إن تصرف كوندري وهي تتحمل عناء إحضار البلسم من بلاد بعيد لتـشفي جـرح الملك تجعلنا نستشفّ طبيعتها المزدوجة فهي المرأة التي جلبت الآلام لأمفورتاس ، وهي التي تجهد أن تخفف أوجاعه حين تكون حرة من قبضة كلينجسور الشريرة. وهي في أحيان مخلصة للكأس المقدسة، وفي أحيان أخرى عبقرية في الشر لمـن يدافعون عنها.

أحد الحراس الذين بقوا مع جورنمانز يلاحظ أن كوندري تـستلقي حـين رمـت بنفسها على الأرض، يصرخ معنّفا: "لماذا تنامين كأنك وحـش بـري؟" فتجيبـه: "أليست الوحوش هنا مقدسة؟" يحاول الحارسان الآخران أن يسخرا منهـا ولكـن جورنمانز يدفعهم عنها: "لم تؤذكم في شيء. إنها في خدمة الكأس المقدسة وفقـط حين كانت بعيدة عنا في أراض بعيدة، أصابنا الأذى والشر." ثـم يلتفـت إليهـا ويسأل: "أين كنت حين فقد قائدنا رمحه المقدس؟ لماذا لم تكوني تساعدينا حينذاك؟" "أنا لا أساعد" يكون جوابها مصحوبا برجفة كأنما كانت شوكة ندم مريرة تحزها. "إن كانت تريد أن تخدم الكأس المقدسة، فلماذا لا تبعـث بهـا لتـسترد الـرمح المقدس؟" يصيح أحد الحراس في استهزاء، والشباب استعادوا دون شـك تـذمر كوندري، وذكر السلاح أيقظ ذاكرة جورنمـانز بأنهـا كانـت حينـذاك أسـيرة كلينجسور. ثم لم يلبث أن أذعن لضغط الشباب الذين التفّوا حوله تحت الـشجرة، ليخبرهم عن كلينجسور كيف أن هذا الساحر طلب الـدخول فـي أخـوة الكـأس المقدسة، ولكن تيتوريل رفض، وكيف في رغبته في الانتقام من الأخـوة حـاول تدميرها، والآن وهو قد حصل على الرمح المقدس، يأمل في تحقيق غايته. وبـين الوسائل التي استخدمها كانت هناك وسيلة جديدة.

قطعة موسيقية

خلال ذلك السرد كانت كوندري مستلقية على الأرض، مكتئبة نافرة، وحين تحدث جورنمانز عن الحديقة السحرية لكلينجسور الساحر والغواية التي مارسـها علـى أمفورتاس التي أدت إلى سقوطه، تستميل كوندري في رقدتها بقلق غاضب، ولكنها تسكن بعد ذلك بإرادة قوية تجبرها عليه. كان هناك حقًّا شيء غريب متناقض في تصرف تلك المخلوقة المتوحشة، التي تخدم الكأس المقدسة وتطوف الـبلاد بحثـا عن البلسم لجرح الملك، وفجأة ترفض الشكر على ما بذلته من جهد. وهذه الكآبة التي تملّكتها وهي تصغي رافضة تعليق جورنمانز على القصة. وفوق ذلك حـين سألها جورنمانز أين كانت في غيابها الطويل، والأذى يـصيب فرسـان الكـأس المقدسة وملكهم أمفورتاس؟ فرسان الكأس لا يعلمون شيئا عن هذا، ولكن لم يكـن من أحد سواها وقد بدلها كلينجسور إلى غاوية من قاد فرسان الكأس إلى الحديقـة المسحورة.

جورنمانز ينهي قصته بقوله أن أمفورتاس حين كان يصلّي طالبا إشارة عن كيفية شفائه، تمتمت شفاه غامضة هذه الكلمات:

"الرحمة تشع

حين أحمق لا يحمل الغلّ

ينتظره، ويكون المختار لهذا الفعل."

قطعة موسيقية

أخذوا في غناء هذين المقطعين الشعريين حين ترتيل أصواتهم قد انقطع بـصياح استياء من جهة البحيرة. وبعد لحظة، بجعة جريحة، واحدة من الطيور المقدسـة عند أخوة الكأس المقدسة، ترفرف فوق المسرح وتهبط ميتة قـرب جورنمـانز. الفرسان ينطلقون لمعرفة الفاعل. اثنان منهم يقبضون على بارسيفال الذي قـبض عليه متّهما بقتل البجعة المقدسة. حين يظهر بارسيفال بطلعته الرائعـة، الإشـارة الإلهية ترن من الأبواق.

قطعة موسيقية

إنها إشارة فرح، مليئة بالروح الفطرية لحرية طفل الطبيعة. لا يعلم شـيئا عـن الكأس المقدسة ولا الأخوة ولا قداسة البجعة، والذي يتبجح بحرية عن مهارة قوسه الذي صنعه بنفسه. ثم يأتي تأنيب جورنمانز النبيل لبارسيفال في ميلودي معبـرة إلى مدى بعيد. حتى الحيوانات مقدسة في منطقة الكأس المقدسة تحمى من الأذى. إنه يوقظ في نفس بارسيفال مشاعر لم يألفها، شعور الذنب. إن الحزن الطفـولي عندما أحس بالألم لفعله، كان ساذجا عفويا متعاطفا مؤثّرا بعمق فـي نفـس كـل إنسان.

بعدما تأكّد لجورنمانز أن الشاب لا يعرف شيئا عما اقترف من ذنب بقتل البجعة، يطلب منه أن يعلمه عن أهله ونشأته. بارسيفال يهدأ ويستكين مخبرا إياه أنه نـشأ في الغابات بعد أن هرب من أمه ليلحق بكوكبة من الفرسان يمرون عنـد حافـة الغابة ولم يتمكّن من الرجوع إليها. ولا يستطيع أن يـذكر حتـى اسـمه. هـذه الذكريات الأليمة لأيامه الباكرة تطلق عاملا جديدا حزينا لأمـه هرزليـد (حـزن القلب.) التي ماتت من الحزن.

قطعة موسيقية

ثم يبدأ الفارس المسن بطرح الأسئلة على بارسيفال فيما يتعلّـق بأهلـه واسـمه وموطنه فيجيبه "لا أعرف" وكان هذا جوابه الوحيد. إن جهله، بالإضافة إلى نبلـه الفطري الذي قاده في طريق الكأس المقدسة، جعلت جورنمانز على أمل أن يكون الفتى أخيرا هو الأحمق بلا غلّ، المختار لهذا الفعل. وبما أن الملك قد حمل مـن البحيرة إلى قصره حيث سيقام الطقس المقدس، ليكشف الكأس في احتفـال ذلـك اليوم، فإن جورنمانز بلهجة ودودة يطلب من بارسيفال أن يتبعه.

ثم يحدث تغيير في المشهد مؤثّر في الدراما. المشهد العام ينتقل نحو اليمين، حين يظهر بارسيفال وجورنمانز من اليسار. الغابة تختفي، وكهف يفتح بـين أعـالي الصخور ويخفي الاثنين ثم يريان في الممرات الزلقة التي صـعدا إليهـا. تـرن أجراس آلات موسيقية نحاسية (ترومبون.) حين يصلان إلى الصالة العظيمة التي تغيب في قبة عالية، حيث ينهمر منها جداول نور.

إن تغير المشهد يرافقه نغم جميل هو أساس لمداخلة أوركسترالية قوية مـصحوبة بالمشهد العام ومشهد قاعة الكأس المقدسة.

قطعة موسيقية

كورس الفرسان الذي سيحتفل، يتكسر بحزن أمفورتاس الشديد وآلامـه التـي لا تُحتمل. إن السيمفونية الرائعة التي تعبر عن انكسار القلب ندما فـي تـصويرها معاناة الملك. إنها عذاب فريد يؤثّر في الجسد والروح.

يدخل جورنمانز وبارسيفال الصالة ويجلسان في وضع يريان فيه الموكب ومـن أعماق صفوف الأعمدة المسقوفة على الجانبين، يتقدم الفرسان بخطى ثابتة ويقفون حول طاولة على شكل حدوة حصان عليها أريكة مرتفعة. ثم تعـزف الموسـيقى مرافقة الكورس "إلى حفل الحب الأخير." ثم بعد البيت الأول يمـر صـف مـن الغلمان يقطعون المسرح ويصعدون نحو القبة.

قطعة موسيقية

كورس الفرسان ينتهي بصعود ضخم في موسيقى الكأس المقدسـة حـين يحمـل أمفورتاس، والغلمان يسبقونه حاملين الكأس المغطّاة، وتُرفع فوق الأريكة وتُوضع الآنية المقدسة على طاولة من الرخام أمامه. حين تتلاشى موسيقى الكـأس بـين رنين الأجراس يغني الشباب تحت القبة لحن "الندم الفاجع". ثم يليه "لحن الإيمـان" مصحوبا بكورس الغلمان وهو لحن علوي الجمال، والأوركـسترا تهمـس لحـن النهاية، كأنّه صدى يتلاشى.

تيتوريل ينادي أمفورتاس أن يقوم بدوره المقدس ـ أن يكشف الكأس المقدسة. في البداية، أمفورتاس المعذّب بالندم لخطيئته، مضافا إليه ألمه المبرح مـن جرحـه الملتهب الذي يذكّره باستمرار بسببه، يرفض طاعة والده المسن. يصيح في غمرة يأسه أنه لا يستحقّ المهمة المقدسة. ولكن لا تلبث أصوات أثيرية تنساب إليه مـن القبة. تغنّي الآن نبوءة. "الأحمق الذي لا يعرف الغلّ ويعزي بأمـل الخـلاص". أمفورتاس يكشف الكأس. الظلمة تخيم في الصالة. ثم يشع نور براق على الكـأس المقدسة فتلتمع بوهج بنفسجي ينتشر في الصالة. الجميع يركعون ما عدا بارسيفال الذي وقف بدون حراك مبهورا بالإشارة التي سمعها ورآها، ويحس خـلال ألـم

أمفورتاس كأنما يحس وخزة الألم في قلبه أيضا. ولكن حين ينتهي الطقس وحـين يشارك الفرسان بالقربان المقدس، ويتلاشى الوهج، والملك يحمل إلـى الخـارج ويتبعه الفرسان، يبقى الشاب بعدهم، قويا، وسيما، ولكن في نظر الآخـرين بليـد الذهن. يسأله جورنمانز بجفاء "هل تدرك معنى ما تشاهد؟" ويجيبه الـشاب بهـز رأسه. "إنه ليس إلاّ شابا أحمق" يصيح الفارس المسن، حين يفتح بابا جانبيـا فـي الصالة. "اذهب، ولكن خذ نصيحتي، في المستقبل أترك البجعات وحدها، وابحـث لنفسك عن إوزة" وبعد هذه الكلمات الجارحة يدفع الشاب خارجا، وبغضب يصفق الباب خلفه.

ويبدو المشهد وكأنه افتئات على الشعور الديني الذي يحمله، ولكن فاجنر بعبقريته الموسيقية يسمح للأصوات من القبة أن تسمع مرة أخرى، ويغلـق الـستار، فـي انسجام روحي بنبوءة الأحمق الذي لا يعرف الغل. والذي يحقـق إرادة الكـأس المقدسة.

الفصل الثاني: في قصر كلينجسور السحري وحديقته

لحن كلينجسور المهدد، يتبعه لحن السحر والندم، ثم لحن كوندري فـي الفـصل الأول.

في داخل البرج درج حجري يقود إلى الأعلى حيث جدار غيـر مرتفـع يحـيط بالسطح، وفي الأسفل إلى حفرة عميقة في الخلف، يقف كلينجسور، أمـام مـرآة يعكس سطحها كل ما يجري في منطقة نفوذه التي يهـدد منهـا فرسـان الكـأس المقدسة. ويعلم كل ما يحدث في منطقة الكأس المقدسـة؛ ويعـرف مـا يجهلـه جورنمانز عن الشاب الذي يقترب من المرآة، وكيف إذا وقع في أحابيلـه، عبثـا تتحقق على يديه نبوءة "الأحمق الذي لا يعرف الغلّ". لأنه نفس الشاب الذي طرده جورنمانز وهو فاقد الصبر.

كلينجسور يلتفت نحو الحفرة ويحرك يده بشكل آمر. فتصعد أبخرة زرقـاء مـن الهوة وتعوم على سطحها امرأة فاتنة ـ هي كوندري. ليست نفسها كوندري منـذ أربع ساعات بثيابها الخشنة وحزام جلد الحية يطوق خصرها. ولكنهـا حوريـة

بشعرها الفاحم الغزير الناعم اللماع، وثوب حريري وأقمشة شرقية. وكانت تحاول جاهدة أن تنزل إلى حيث كانت، لولا ضحكة من الساحر الخبيث تحييها، وتردها إلى واقعها. هذا كان سر أعمالها الغريبة التي بدرت منها، وغيابها الطويل عن منطقة الكأس المقدسة، حين كثيرون من فرسان الكأس وقعوا في قبضة كلينجسور! إنها الفخ الذي وضعه لاستدراجهم، والغاوية الكبرى في حديقته السحرية. يذكرها ويهزأ منها ومن عدم قدرتها على التخلّي عن الغواية، وكم اقترفت من خطايا في وجود سابق لها. كانت سلطة الساحر عليها في تلك اللحظة، أنه يستطيع أن يستدعيها في أي وقت لتساعده في تدمير خصومه.

حسنا إنها تفهم ماذا يعني استدعاؤه لها في الوقت الحاضر. كان يقترب من البرج نفس الشاب الذي رأته في غابة الكأس المقدسة، والذي عرفت فيه مثلما فعل كلينجسور المخلّص المحتمل لأمفورتاس ولها. والآن عليها أن تغويه إلى هلاكه وتفقد بذلك آخر أمل لها في الخلاص، الآن، نعم، الآن وفي تلك اللحظة التي يهزأ بها يلوح كلينجسور بيده فينهار القصر كأنما ابتلعته الأرض، وفي مكانه تزهر حديقة كالجنان، فيها من العطر والزهور ألوان.

في الأوركسترا بمحركها بارسيفال، تعطي وصفا روحيا لصراع قصير بين بارسيفال وفرسان كلينجسور. ومن خلال محرك كلينجسور ذي الإيقاع المظلم يهبط القصر وتنتشر الحديقة المسحورة في جميع الاتجاهات، وبارسيفال واقف عند الجدار يحملق في دهشة للمشهد الساطع الذي برز له.

صبايا الزهر ينطلقن منتحبات لمصير فرسانهم الأحباء بعويل الحزن، وموسيقى الأوركسترا ترافقهن بشكل جميل في انفعالاتهن الثائرة.

وفيما يلي يدخل محرك بارسيفال مرة أخرى وهو يندفع برشاقة وجمال الفتيات قافزا إلى الحديقة ويحاول الاندماج بينهن. وهذا النغم يتردد كثيرا من خلال المشهد. الفتيات حين يتبين لهن أنه لا يبغي إيذاءهن يزين أنفسهن بالزهر ويتجمهرن حوله بإشارات مغوية ثم يحطن به وهن يغنّين أغنيتهن في إغوائه.

قطعة موسيقية

بارسيفال في جميع جولاته لا أحد يذكر اسمه؛ والآن تنهال عليه كأنما ولـد مـن عطر الزهور. امرأة جميلة، تمد ذراعيها إليه، مرحبة به مـن مـضجعها بـين الزهور؛ يقترب منها ويركع أمامها، فتهمس له بلهجة حنون، وتميل نحوه وتطبـع قبلة على شفتيه. إنها الغواية التي دمغت قدر فرسان كثيرين للكأس المقدسة. ولكن عند الشاب ألهمته تغيرا فجائيا. الحيلة المميتة التي غايتها تدمير وتحويل "الأحمق الذي لا يحمل الغل" إلى وعي الرجل، هذا الرجل الذي كـان واعيـا لرسـالته. فالمشاهد التي رآها في قصر الكأس المقدسة، والملك المدحور بجرح مدمى يـأبى أن يندمل. الدور الذي يلعبه خطر الغواية التي سيقت إليه. كشفت بـصيرته تلـك القبلة الغاوية في غبطتها. عبثا حاولت الساحرة أن تسحبه إليها بعـد أن رماهـا عنه. تجن في نكرانها وتنادي الساحر ليعينها على الشاب الوسيم الذي أُفلت من أن يكون فريسة لها. وعند صياحها ظهر كلينجسور عند جدار القصر وفي يده الرمح الذي أخذه من أمفورتاس وحين واجهه بارسيفال انقض فيه عليه، ولكن الرمح في طيرانه توقّف فوق رأس من أراد اغتياله به.

يمسك به بارسيفال، ويشير به إشارة الصليب فإذا بالبرج ينهار والحديقة تتلاشـى تاركة أرضا بلقعا يسير فيها بارسيفال، تاركا كوندري وهـي شـبه ميتـة علـى الأرض، باحثا عن الطريق الذي يوصله إلى قصر الكأس المقدسة، حيث يحقـق رسالته التي آلى على نفسه القيام بها.

الفصل الثالث:

بعد تجوال طويل خلال البيداء، يجد بارسيفال نفسه في ضـواحي غابـة الكـأس المقدسة. من رأسه إلى أخمص قدميه كان مدرعا بالسواد. خوذته تـستر وجهـه والرمح المقدس في يده، يقترب من موقع جورنمانز وقد أصبح شـيخا فانيـا ولا يزال يقوم بالحراسة بينما كوندري مرة أخرى بثوبها الخشن شاحبة الوجه، ودودة، تخدم بتواضع أخوة الكأس المقدسة. إنه صباح الجمعة الطيبـة، والـسلام يغمـر الغابة.

كندري كانت الأولى التي لاحظت قدوم الفارس الأسود. من ترحيبها الحنون، بينما كانت تقترب من جورنمانز مشيرة إلى الفارس الصامت، يظهر أنها تخمـن مـن يكون ولماذا جاء. أما بالنسبة لجورنمانز فلم يكن سوى دخيل مسلّح علـى أرض مقدسة وفي يوم مقدس، بينما كان الفارس الأسود يجلس على تل صغير قرب نبع ويبقى صامتا. الحارس المسن يوبخه لإساءته. ينهض الفارس ويرمي بالرمح الذي يحمله إلى الأرض أمامه، ويضع سيفه ودرعه كذلك ثم يفتح خوذته، ويبعدها عن رأسه ويضعها قرب أسلحته الأخرى، ثم يركع نفسه في صلاة حارة أمام الـدرع. الدهشة والتعرف إلى الرجل والسلاح والعاطفة العميقة تتلو بعضها بعـضا علـى وجه جورنمانز. ينهض بارسيفال من وضعه الراكع ويجلسه مرة أخرى على التلّة قرب النبع. يفك عنه درع الساقين، ودرع البدن، ويلبسه درع الـزرد ومعطـف فرسان الكأس المقدسة، بينما كانت كوندري تسحب قارورة ذهبية مـن صـدرها وتدهن بها قدميه وتجففهما بشعرها المسترسل. ثم يأخـذ جورنمـانز القـارورة ويصب محتواها على رأس بارسيفال، ويعمده ملكا على فرسان الكأس المقدسـة. يقوم الملك الجديد بأولى واجباته حين يأخذ الماء من النبع في قبضة يده ويعمد به كوندري، التي كانت عيناها تفيضان بالدمع وهي ترفعهما إليه في غبطة.

هناك كانت الموسيقى تتابع محرك التعميد.

قطعة موسيقية

بمناسبة سحر الجمعة الطيبة يضع فاغنر أحلى نغماته في هذه المشاهد.

قطعة موسيقية

مرة أخرى جورنمانز وكوندري تتبعه يقود طريقه إلى قصر الكأس المقدسة. والد أمفورتاس، تيتوريل يموت حزنا من رؤيا الكأس المقدسة وقد بقيت في غلافها لأن أمفورتاس بدافع ندمه الساحق اعتبر نفسه ملوثا بالإثم لا يستطيع كشفها. الفرسان اجتمعوا في الصالة الكبيرة، وحملوا نعش تيتوريل في موكب حزين ووضعوه أمام أريكة أمفورتاس.

صاح به الفرسان "الكشف الآنية المقدسة" فأجاب أمفورتاس في يأسه وهـو يقفـز ويمزق ثيابه ويريهم جرحه المفتوح قائلا: "اذبحوني، خذوا أسـلحتكم واغـرزوا نصالها في جسدي. اقتلوني فتقتلون الألم الذي يعذّبني".

بينما كان أمفورتاس واقفا في حميا الألم، يدخل بارسيفال ويتقـدم بهـدوء نحـوه ويلمس جرحه بطرف الرمح.

"سلاح واحد يشفي جرحك

إنه السلاح الذي طُعنت به!"

يتحول عذاب أمفورتاس إلى غبطة طاغية. يفتح المنار عن الكأس المقدسة، فتشع مرة أخرى. يمسك بها بارسيفال ويلوح بها جيئة وذهابا، بينما كـان أمفورتـاس وجميع الفرسان يركعون احتفاء به. أما كوندري فكانت تحملق به عرفانا بالجميل، ثم تهبط بلطف في نوم أبدي وغفران طالما اشتاقت إليهما.

موسيقى هذا المشهد تطوف به في عالم أثيري محركه الإيمـان مـصحوبة بكـل الأنغام الروحية المرافقة.

قطعة موسيقية

نسمع فيها محرك النبوءة، والسر المقدس، بينما كان الفرسان والشباب والغلمـان تحت القبة يغنّون محرك الكأس المقدسة، التي هيمنت على المسرح، رافعـة روح الإنسان إلى نصر ديني ينتهي به العمل الفنّي.

* * *